من خواطر هجا :

معلّم النبـــاح

على هامش وعر بلفور

للأستاذ كامل كيلاني

« مبذولة لمن الذين علموا أصحاب البسكي ، فنون النباح ، فراحوا يخلطون العواء بالنواح . وكانوا أول من تنكر لناصره ومؤيده ، ونبح في وجه معلمه ومرشده . »

ننقل القصة التالية عن المقدمة النفيسة التي افتتح بها « أبو الغصن جحا » خواطره التي أهداها إلى ولديه « جحوان » و « جحية » وقد ضمها مخطوط جحوى نفيس ، لعله مكتوب بخط رجل من أصحاب جحا أو بخط أحد معاصريه . وما أجدر أن يعتبر بهذه القصة من يرسمون لغيرهم طرائق الاعتداء ومناهج الجور ، ويطول هُتافهم وتصفيقهم لها ، واطراقهم وإعجابهم بها ، متى وافقت أهدافهم ، وأعانتهم على قضاء لباناتهم ، حتى إذا عارضت أهواءهم ، واصطدمت بأنانيتهم ، ضاقوا بتلك الطرائق ذرعا ، ولاقوا من هذه المناهج أشد الويلات .

قال أبو الغصن عبدالله دجين بن ثابت الملقب بجحا رحمه الله :

قاتل الله الأثرة والأنانية — يا ولديّ العزيزين — فإنهما تضلان الذكي ، وتلغيان عقله الراجح ، وتفسدان عليه منطقه السديد ، فلا يلبث أن يعميه الهوى ، وينسيه الغرض ما هو خليق به من القصد والاتزان ! وما أخلق الرجل العاقل بأن يعرف أن أكثر ما يشير به من الرأي إنما هو سلاح ذو حدين : أحدهما له والآخر عليه . ولا يجوز لمنصف بعد أن يتخير الرأي ويرتضيه أن يقبل منه ما هو له ويأبى منه ما هو عليه . وما أولاه أن يروض نفسه على احتمال عواقب مشورته ، فلا يوجه اللوم إلى غيره بعد أن يسر له سبيل الشر والأذية .

أقول هذا لكما بعد أن قصّ عليّ بعض جيراني في هذا الصباح قصته شاكياً باكياً تكاد مرارته تتميز من الغيظ ، وهو يلعن أنانية صاحبه ، بعد أن رسم له طريقها ، ونهج له خطتها ، وزين تطبيقها وتحقيقها .

وفد عليّ صاحبي « أبو عامر » عابس الوجه

« ما خطبه »

فقال : « أتذكر صاحبنا أبا إسحاق ؟ »

قلت : أتعني « رأس الوزة ؟ »

قال : « ما عنيت غيره ، يا أبا الغصن ! »

قلت : « فليس في بلدنا أحد يجهله أو يجهل ما نزل به من كوارث وأحداث ! لطف الله به يا أبا عامر ! لقد سمعت أنه اختلط »

فقال : « هذا كلام يذاع ويملأ الأسماع ، وإن بعد عن الحقيقة البعد كله . إن رأس الوزة لم يختلط ؛ ولكنه رأى في جنونه مهربا له من ديونه ، فلاذ به ، وتشبث بأذياله ؛ ولم تلبث حيلته أن جازت على كل من رآه . وليس هذا بمستكثر على مثله ، فهو آية من آيات الخداع والغدر والعقوق ! »

قلت : « ما علمت عليه من سوء ! فماذا بدر منه حتى ساء رأيك فيه ، وقسا حكمك عليه ؟ »

قال : « لقد أرهقته ديونه ، وألح عليه دائنوه ، فلم يجد له وسيلة غير الإختباء في منزله ليهرب من إلحاف غرمائه ، وينجو من مضايقة دائنيه » .

وكنت قد سلفته — فيمن سلفه — دينا يسيرا .

ورأيت إمعانه في الإحتجاب ، فما زلت أحتال عليه ، حتى وصلت إليه .

ولم يكد يراني حتى تجهم محياه ، وظهرت الحيرة والارتباك على سيماه ، فهونت عليه الأمر ، وما زلت به حتى سكن روعه ، وسرّي عنه .

وما عتم أن راجعه أنسه وبشاشته حين عرضت عليه وسيلة للخلاص من دينه ودائنيه والفكاك من أسره ، على أن يرد لي — إذا نجحت الخطة — ما أسلفته إليه من دين .

فتهلل بشراً وقال : « لك علي عهد وميثاق إن أظفرتني بذلك لأردّنّ إليك ضعف دينك ، ثم لا أنسين لك صنيعك ما حييت » .

فقلت له : « افتح دارك — غداً أو بعد غد ، إن شئت — والبس أفخر ثيابك — وهيء في ساحة الدار أفخر مجلس تستطيع أن تهيئه لاستقبال عارفيك — دائنين وغير دائنين — ثم اجلس متكئا على أريكة تمدها في صدر مجلسك . وتظاهر بالجد والوقار .

فإذا مر بك أحد فلا تلتفت إليه ولا تلق له بالا . فإذا حياك فلا تجب تحيته بغير النباح . فإذا أظهرلك دهشته فانبح ثانية وثالثة ، فإذا تمادى فى الالحاح ، تماديت فى النباح .

ثم اتخذ من النباح شعاراً لك بعد ذلك ، فلا تجب بغيره كل من حياك ، ولو كان أخلص عارفيك وأصدق محبيك وأقرب المقربين إليك من ولدك وأهلك . انبح ولا تكف عن النباح ، واعو ولا تقصر فى العُواء ، حتى يضجروا بك فيرفعوا أمرك إلى والى المدينة .

فإذا مثلت بين يديه فاعتصم بالصمت . فإذا سألك عن جلية أمرك لم تحر من جواب إلا أن تملأ أذنيه عواء . وحذار أن تغير من ذلك شيئاً أوتبدله حتى يَقِرَّ فى نفس الوالى أنك — فيما تأتيه — غير متصنع ولا متكلف .

فإذا اقتنع أن طائفاً من الجنون قد ألم بك ، لم يجد فائدة من حوارك ، فيدفعه إليأس منك إلى إطلاق سراحك ، ورد حريتك إليك ، وإعفائك مما عليك من دين !

أتعرف يا أبا الفضل كيف استقبل « رأس الوزة » هذه النصيحة الغالية ؟ لقد فاضت نفسه — حين سمعها — عرفاناً بالجميل . ولهج لسانه بأبلغ عبارات الثناء والشكر على ماييسرته له من أسباب النجاة من ورطته ، والخلاص من كُربته . فلما جاء الغد نفذ الخطة وفق ما رسمتها له فى براعة وحذق !

قدم عليه زائر من جيرانه ، فلم يكد يراه جالساً حتى أقرأه السلام ، فكان رده عليه نباحاً . وأقبل ثان وثالث ورابع ، فلم يلقوا منه غير ما لقيه أول القادمين عليه .

ولم يمض زمن يسير حتى ذاعت قصته فى المدينة ، فأقبل عليه دائنوه يتقاضونه ديونه ، فلم يلقوه إلا عاوياً . وراحوا يعنفون به تارة ، ويلينون له تارة أخرى ، ثم يُسرفون فى وعيدهم حيناً ، وفى تلطفهم أحياناً ، فلم يُجْدِ فى رده عن عوائه حيلة ولا وسيلة .

فلما يئسوا منه ، ذهبوا به إلى الوالى ، فسأله عن قصته ، فنبحه . فزجره وتوعده ، فوجده يسترسل فى النباح . وما زال بالوالى حتى أضجره ؛ فأمر بزجه فى السجن ، ووكل به من يراقبه عدة أيام ليخبر أمره ، ويجلو سره ، فلم يظفر منه مراقبوه بشىء غير ما تواصل من نباحه

فأمر الوالى باطلاق سراحه بعد أن بث له بعض العيون والأرصاد يكمنون فى غدواته وروحاته ، ليروا ما يصير إليه شأنه . فظلوا يتبعون ظله أياماً ، فلم يتحول عن حاله قيد أنملة . فأيقن الوالى حينئذ أنه لا بد قد أصابه لَمَمٌ ، وأدركه من الخبال طرف .

فلم ير له حيلة فيه ، فقضى بإسقاط ديونه ، وأمر دائنيه بالإقلاع عن مطالبته بما لهم قِبَلَهُ من الحقوق .

وهكذا خلص « رأس الوَزَّة » مما ركبه من دين . وتبدل خوفه أمناً ، وفزعه طمأنينة ، وأصبح يغدو ويروح حيث شاء ، دون أن يزعجه دائن أو ينغص عليه صفو عيشه غريم

أتعرف كيف جزانى على هذا الصنيع يا أبا الفضل ؟

فقلت له مبتسما ساخراً وقد امتلأت نفسى زراية له ونفوراً منه : « لا شك عندى فى أنه سار على النهج القويم الذى رسمته له فى اغتيال حقوق الناس ، فنبح فى وجهك كما نبح فى وجوه دائنيه ، ثم فى وجه واليه » .

قال « أبو عامر » :

ما أبدع ذكاءك وأنفذ فطنتك يا أبا الفضل : لقد جئته بعد أن هدأ باله وقَرَّ قراره أذكره عهده ، وأستنجزه وعده ، فما زاد على النباح . فدهشت من جرأته ، وتملكتنى الحيرة من صفاقته . وقلت له : « لك أن تمثل هذا الدور مع كل إنسان إلا معى ، وأنا واضع خُطَّته ، ومُبدع قصته . فتكلم ويحك ! » .

فأبى إلا عواء يتلوه عواء ، وكلما تماديت فى محادثته تمادى فى عوائه ، حتى نفدت حيلتى ، ودب اليأس إلى قلبى ، فغادرته محزون القلب مهيض الجناح .

ورجعت إلى دارى أفكر فيما انطوت عليه نفوس الناس من غدر ولؤم وفساد ، بعد أن رأيت من صاحبى ما لم يكن ليخطر لى على بال ، من فنون العقوق ، وسلب الحقوق .

ولكن خبرنى بربك — يا أبا الفضل — كيف تبينت خاتمة القصة قبل أن أقضى بها إليك ؟ » .

فقلت له : « إن عجبى منك — لا منه — شديد . فليس عليه — فيما صنع — غبار : لقد رسمت له الطريقة واضحة جلية ، فسلكها مهتدياً بهديك ، فما تنكبها ولا حاد عنها . فمن تلوم ؟ ومم تشكو ؟